حين يصبح الانسان طاعناً في السن، عاجزاً عن العمل، يبدأ بتحضير ثياب الموت، وهي بالنسبة للرجل في البصة عبارة عن قمباز وسروال وقميص وشملة وحطة وجاكيت وكلسات وكفن أبيض، وبالنسبة للمرأة عبارة عن فستان مخمل استبدل في الفترة الأخيرة ـ قبيل النكبة ـ بفستان أبيض وقميص، وكلسات وحطة أو طرحة أو شاشة بيضاء، وأحياناً ـ عند المسيحيين ـ «وزرة» من القدس عليها صلبان أو رسم لكنيسة القيامة.

واستعداداً للموت، أيضاً، يقوم المسن بتسديد ما قد يكون بذمته من ديون، ويقسم ممتلكاته بين أولاده منعاً لاختلافهم بعد موته، أو يكتفي بكتابة وصية بذلك أمام شهود.

ويجري اعلان الوفاة عند المسيحيين بقرع جرس الكنيسة قرعاً متقطعاً.

وطبعاً، يتوقف حجم المأتم على مكانة المتوفى الاجتماعية، وثروته ونسبه وجنسه.

وجرت العادة ألا يدفن المتوفى باكراً، إذا كانت الوفاة صباحاً، وغالباً يجرى الدفن بعد الظهر. ويعطل الجميع أعمالهم للمشاركة في الجنازة، حيث تعتبر الوفاة مناسبة لالتقاء الجميع ودفن ما قد يكون بين بعضهم من خلافات.

ويثبت حداد في هذا الفصل التناويح التي ترددها النساء في هذه المناسبة، والتي تختلف باختلاف صلة القربى بالمتوفى، وعمره، ومكانته. كما يتطرق الى الدم والثأر والصلحة والدية.

الوصفات والمأكولات الشعبية

بقي الطب الشعبي منتشراً وذا شأن في البصة رغم وجود طبيب صحة مقيم فيها، أيام الانتداب، فهو بالنسبة للفلاحين حصيلة معرفة وخبرة متوارثة.

ويقسم هذا النوع من الطب الى أربعة أقسام هي:

١ـ الطب الوقائي: تعبر عنه الامثال الشعبية التي تدعو الى عزل المريض، الحمية، النظافة العامة، تناول المآكل المغذية، العمل والابتعاد عن الكسل، أهمية دخول الشمس الى البيت وأهمية الهواء النقي، النوم والراحة، تحاشي البرد والاهتمام بالدفء.

٢ـ الطب الخرافي وأدواته: طاسة الرعبة، الخرز، الرقوة، البخورة، النذور، تبديل اسم المريض، وزيارة مقامات الاولياء.

٣ـ الطب البشري وأدواته: عقاقير وأعشاب لعلاج الامراض الجلدية، ووجع الرأس، واوجاع الصدر والبطن، ولسع الحشرات، والتجبير للكسور.

٤ـ الطب البيطري: فالفلاحون يمتلكون خبرة واسعة بأمراض المواشي ووسائل علاجها.

أما المأكولات الشعبية في البصة فهي شبيهةبمثيلاتها في لبنان وفلسطين، والكبة هي اشهرها على الاطلاق.

الأزياء والصناعات اليدوية والمساكن

لا تختلف ملابس البصاوي عما يرتديه نظيره في أي مكان من فلسطين، فهي: الطاقية، والحطة والعقال، وأحياناً الطرابيش المغربية، والقمباز والساكو. ثم في مرحلة لاحقة «الطقم».

أما المرأة، فملابسها مميزة بعض الشيء، والرئيسي فيها الشنتيان، وهو ثوب طويل حتى القدمين، معه سروال مطرز عند اسفله يماثله في الطول، وأصبح مع الأيام لا يتخطى الركبتين، والشال للوسط، كما قد ترتدي المرأة القمباز. وقد تغير هذا الزي بسرعة لتحل محله الفساتين الحديثة.

ومنازل البصة بعضها قديم مكون من غرفة واحدة مرتفعة، وبعضها حديث يأخذ بنظام تعدد الغرف.

ويتطرق المؤلف الى بعض المعتقدات بالبناء، مثل تحاشي البناء في أيام الشؤم كالثلاثاء والأربعاء، ووضع أغصان خضراء ونقود فضية تحت العتبة لجلب الخير، وغيرها.